Vol. 24 No. 2 (2024)
ISSN: 1823-4313 / e-ISSN: 2785-9169
https://ejournal.unipsas.edu.my/

الأنساق الأدبيّة في وصف فتح القدس على يد صلاح الدّين الأيّوبي ودورها في تعزيز مبدأ التّفاؤل

وِيدْرَاوْغُو إِنُوسَا

أستاذ اللّغة العربيّة بجامعة السّلطان أحمد شاه الإسلاميّة ببهانج ماليزيا

Abstract

تمرّ الأمّة الإسلاميّة اليوم بأصعب فتراتها التّاريخيّة، فقد تفكّكت الخلافة الإسلاميّة وانفلت من أيدي المسلمين أزمّة كثير من الممتلكات والإنجازات الّتي كانوا حقّقوها في الماضي عبر التّاريخ، ويأتي على طليعة هذه الممتلكات المنفلتة، إدارة بيت المقدس وأكنافه، غير أنّ هذه المرحلة الّتي تكاد قلوب الكثير أن تزيغ من هول ما يرون ويسمعون عمّا يحدث لإخواننا في فلسطين، لم تكن الأولى من نوعها؛ فلربما ما حدث أيّام دخول الصّليبيّين القدس عام ٤٩٢هـ وما اركتبوه من جرائم ومذابح بحقّ المسلمين وفي أقلّ من أسبوعين فقط، يفوق ما يحدث في غزّة اليوم بثلاثة أضعاف، فقد قتلوا ما لا يقلّ عن مائة ألف مسلم وسبحوا في دمائهم بخيولهم ثمّ عاثوا في البلاد دمارًا وفسادا استمرّا قرابة مائة سنة، حتّى أخرجهم منها صلاح الدّين الأيوبي وهم صاغرين. وفي فتح صلاح الدّين للقدس وما حدث خلاله من مواقف ومقالات وأشعار، دروس وعبر كثيرة تستلهم الثّقة بالله وتشحن النّفوس بالإيمان والأمل بأنّ كلّ ما نسمعه ونشاهده سيمرّ وتنوب عنه الفرحة والتّوفيق للأمّة الإسلاميّة، ويأتي هذا البحث ليقف على جزئيّة مهمّة من النّصوص الّتي تناولت فتح صلاح الدّين للقدس، ألا وهي النّصوص الأدبية الّتي تشابهت في وصفها لهذا الفتح وما حوله وإن كانت من كتّاب أو شعراء مختلفين، تلك النّصوص الّتي لو تمثّلت صورتها مجتمعة لدى المرء، يرى الفتح المبين قريبا لبيت المقدس وإعادة الهيبة والمكانة للإسلام والمسلمين. وقد قسّمه الباحث إلى مقدّمة وثلاثة محاور وخاتمة، يتناول المحور الأوّل منها: فتح القدس في عهد صلاح الدّين تاريخه وممهّداته، والثّاني: الأنساق الأدبيّة في الفتح وشحن نفوس الفاتحين، والثّالث: دور هذه الأنساق في بعث روح الأمل

Perkembangan Artikel

Diterima: 31 Ogos 2024
Disemak:
Diterbit: 31 Oktober 2024

*Corresponding Author:
وِيدْرَاوْغُو إِنُوسَا
أستاذ اللغة العربية بجامعة السلطان أحمد شاه الإسلامية ببهانج ماليزيا

Email: yunusouedraogo@gmail.com

وتعزيز مبدأ التّفاؤل للأمّة. وقد انتهج الباحث فيه المنهج الوصفي لجمع النّصوص المتشابهة ووصفها ثمّ الاستنباط منها الدّورس. وقد توصّلت الدّراسة إلى أنّ الأنساق الأدبيّة المأثورة في وصف فتح القدس كثيرة، تنوّعت بين قصائد ومقالات ورسائل كتبت أيّام الفتح وقبلها، منها القصيرة جدًّا ومنها المطوّلة، وقد أثّرت بعضها في السّلطان صلاح الدّين نفسه حتّى كانت سببًا في أن يختار قائلها ليكون خطيبا في أولى جمعة أقميت في القدس، كما أنّها بصفتها التّشجيعيّة تلعب دورًا مهمّا لاستنهاض همم الأمّة وإبقاء أملها عبر التّاريخ.

الكلمات المفتاحيّة: الأنساق الأدبيّة، فتح بيت المقدس، صلاح الدّين، التّفاؤل.

مقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على النّبيّ الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّابعد:

فقد كتب خلال فتح بيت المقدس في عهد صلاح الدّين الأيّوبي كثير من الرّسائل والخطب وقصائد، بعضها كتبت قبله ولعبت دورًا تشجيعِيًّا لتحقيق الفتح، وبعضها كتبت بعد الفتح وساعدت على تثبيت الفاتحين وترشيدهم لما يعينهم على الاحتفاظ بهذا النّصر لمدى بعيد، وقد التقت هذه الأنساق الأدبيّة في معان كثيرة، أهمّها: التّنبّؤ بفتح بيت المقدس قبل فتحه استنادًا إلى نصوص دينيّة، مدح السّلطان صلاح الدّين وأصحابه، تشبيه هذا الفتح بفتوح النّبيّ صلى الله عليه وسلّم والصّحابة الكرام رضوان الله عليهم، وهذه الأحداث التّاريخيّة وهذه المعاني مجتمعة إذا تمثّلت بصورتها الصّحيحة أمام المسلم فإنّها لا تدعه بأدنى شكّ أنّ كلّ ما نراه اليوم ونشهده في فلسطين حدث سيمرّ وينوب عنه ما يفرح القلوب وما ذلك على الله بعزيز، لذا جاء هذا البحث لجمع شيء من هذه الأعمال الأدبيّة الّتي جاءت متعلّقة بهذا الحدث في هذه الحقبة الزّمنيّة أملاً أن نستنتج منها ما يحيي آمال الأمّة الإسلاميّة لمستقبل زاهر بإذن الله تعالى.

وقد قسّمه الباحث إلى مقدّمة وثلاثة محاور وخاتمة، يتناول المحور الأوّل منها: فتح القدس في عهد صلاح الدّين تاريخه وممهّداته، والثّاني: الأنساق الأدبيّة في الفتح وشحن نفوس الفاتحين، والثّالث: دور هذه الأنساق في بعث روح الأمل وتعزيز مبدأ التّفاؤل للأمّة.

مشكلة البحث:

عظمة البلاء الّذي تعيشه الأمّة الإسلاميّة اليوم تنسي كثيرا من المسلمين ماضيهم الّذي كان الله سبحانه وتعالى مكّنهم فيه في الأرض بعد أحداث شبيهة بأحداث اليوم، فالنّكبات تكرّرت للأمّة ليست في القدس وحده بل حتّى في العراق أيّام المغول والتّتار وفي الأندلس وحتّى في بوسنة في السّنوات الأخيرة، والّتي كان الهدف من كلّها القضاء على الإسلام وتجفيف منابعه، فأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره،

وقد حفظت لنا الصّورة الحقيقيّة لهذه الأحداث الماضية مجموعة أعمال أدبيّة تناول كلّ منها حدثًا من هذه الأحداث، فما هي الأعمال الأدبيّة الّتي تناولت فتح القدس خاصّة في عهد صلاح الدّين وما دورها في إحياء روح الأمل والتّفاعل للأمّة الإسلاميّة اليوم؟

أسئلة البحث:

١. متى كان فتح القدس في عهد السّلطان صلاح الدّين وما الظّروف الّتي مهّدت له؟

٢. ما هي الأنساق الأدبيّة الّتي تناولت فتح القدس في عهد صلاح الدّين؟

٣. إلى أي مدى تحيي الأنساق الأدبيّة الّتي تناولت فتح القدس في عهد السّلطان صلاح الدّين روح الأمل وتعزّز مبدأ التّفاؤل للأمّة الإسلاميّة؟

أهداف البحث:

١. الوقوف على تاريخ فتح القدس في عهد السّلطان صلاح الدّين ومعرفة الظّروف الّتي مهّدت لهذا الفتح.

٢. معرفة أنواع الأنساق الأدبيّة الّتي تناولت فتح القدس في عهد صلاح الدّين وموضوعاتها.

3. معرفة مدى أهمّية الأنساق الأدبيّة الّتي تناولت فتح القدس في عهد السّلطان صلاح الدّين في إحياء روح الأمل وتعزيز مبدأ التّفاؤل للأمّة الإسلاميّة.

المحور الأوّل/ فتح القدس في عهد صلاح الدّين تاريخه وممهّداته:

ظلّ المسجد الأقصى تسعين عامًا تحت وطأة الصّليبيّين بعد أن حرّره أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في السّنة الخامسة عشر من الهجرة النّبويّة؛ فقد وهنت الخلافة الإسلاميّة عشيّة الحروب الصّليبيّة واضمحلّت قوّاتها وتفرّقت جماعاتها وتبدّدت سلطاتها، ففي جناحها الشّرقي كانت هناك خلافتان: سنّيّة وهي الخلافة العبّاسيّة في بغداد، وشيعيّة وهي الخلافة الفاطميّة في القاهرة، وفي جناحها الغربيّ حصلت انقسامات كثيرة بين أبنائها فقامت نتيجة ذلك دويلات عديدة عرفت بملوك الطّوائف، كان ذلك كلّه طريقًا ممهّدًا للصّليبيّين والبيزنطيّين للسّيطرة على ممتلكاتهم والتّوغّل في بلادهم، فنشبوا نيران الحروب بينهم وبين المسلمين، وتحرّكوا ببركة البابويّة ورهبان الكنائس، مظهرين في سيرهم ذاك انتصارهم للمسيحيّة مبطّنين نواياهم الاقتصاديّة والسّياسيّة، فنهبوا البلاد وقتلوا العباد وأحرقوا المباني والقصور وتنادوا إلى تركة المسلمين، فتحرّكت جموع حاشدة من شتّى نواحي أوروبا إلى الرّها وأنطاكيا وفلسطين، فأسّسوا فيها إمبراطوريّاتهم القويّة قامت فترات من الزّمان على حساب الدّولة الإسلاميّة، وقتلوا فيها عشرات الآلاف من المسلمين، ففاهت من الشّوارع ومرافق البلاد أيّام حروبهم، روائح جثث المسلمين حيّرت ساكنيها الغاصبين حينًا، وكان الغرض القضاء النّهائيّ على الدّيانة الإسلاميّة، فأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون؛ فحفظ جرثومة الإسلام في الغرب بالمرابطين، وفي الشّرق بالسّلاجقة التّركيّين.

وكان قيام الدّولة الأيّوبيّة أثرًا من آثار أولائك السّلاجقة؛ فلمّا ضعفت الخلافة العبّاسيّة بسيطرة البويهيّين الشّيعيّين على الخلفاء العبّاسيّين استنجدوا (بطغرل بك)، فكان عونًا لهم حتّى قضوا على نفوذهم ووقف مع القائم بأمر الله ضدّ المعادات الصّليبيّة والبيزنطيّة، وكذلك المؤامرات الشّيعيّة الفاطميّة، ولعب نفس الدّور بعده ابن أخيه (ألب أرسلان)، ثمّ ابن ألب أرسلان (ملكشاه)، إلاّ أنّ هذا الأخير اقتسم أولاده البلاد بعده، وسار على دربهم من جاء بعدهم، عرفت جماعاتهم باسم الأتابكة، كان من أبرزها وأعظمها أتابكيّة عماد الدّين الزّنكيّ الّتي ظهرت تلبية لحاجة المسلمين الحثيثة المنصبّة في الاستنهاض إلى الجهاد، واستخلاص البلاد من أدناس الكفّار، فتعامل معهم الأسرة الأيّوبيّة والّتي من أبرز رجالها، نجم الدّين أيّوب وابنه صلاح الدّين الأيّوبيّ، وأخوه أسد الدّين شيركوه، فلعبت هذه الفئة الأخيرة الدّور الحاسم في عهد نور الدّين ابن زنكيّ، ثمّ وصلوا إلى الذّروة بتوحيد البلاد بعد السّقوط النّهائيّ للحكم الفاطميّ بمصر، فأعلنوا الجامعة الإسلاميّة بحكم السّلطان صلاح الدّين الأيّوبيّ، وتحرّكوا بعد ذلك إلى تحرير القدس بعد حركات الإخضاع للتّمرّد الدّاخليّ والحروب المتكاثرة مع العدوّ الصّليبيّ الخارجيّ، كان من أعظمها معركة حطّين الّتي مهّدت الطّريق إلى فتح القدس في رجب عام ٥٨٣هـ[١] .

[١] انظر : عماد الدّين، **الفتح القسّي في الفتح القدسي**، ص٩,٢٣

وكان فتح القدس يوم الجمعة السّابع والعشرين(٢٧) من رجب عندما ارتفعت الشّمس وحان وقت الصّلاة، فلم يستطع المسلمون أداءها لانشغالهم بأعمال الفتح وحفظ الحصون، حتّى إذا أتى اليوم الرّابع[١] من شعبان، اجتمعت جموع المسلمين في الأقصى وابتهجت نفوسهم بالأفراح، وامتلأت قلوبهم بالسّرور فارتفعت الأصوات، وكانوا قد طهّروا البيت من الأدناس، وجنّبوا عنها الأوثان، ورفعوا عمارة الخطبة ونصبوا عليها المنبر[٢]، وأظهرو في البيت المحراب، وحيعل المنادي إلى الصّلاة، فانتظروا الصّاعد على المنبر والحائز بفضل الإرشاد والظّهور على أعين الأنام، وكان قد تقدّم إلى السّلطان جهابذة من العلماء يطلبون فرصة الإلقاء في أولى جمعة تقام في هذا المكان، واستعدّ البعض وأبقوا ما أكنّوه في قلوبهم، وتطلعت الأعناق والرّؤوس لرؤية من يقع عليه الإفراز، حتّى إذا دنا وقت الخطبة نادى السّلطان القاضي ابن زكيّ ليقوم بهذه المهام، ويؤثّر بما في وسعه من البيان، قال أبو شامة –نقلاً عن العماد.: "فصعد وسعد، وحمد وأحمد، وأدّى المعاني الشّريفة ألفاظه، ونبّه الأقاصي والأداني إيقاظه، وجلا المسامع، وجلت المدامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع، والمنهج المتبوع، والشّرط الموضوع، وذكر في الفتح البكر ما قتضّ به أبكار الإشعارات بأبدع البراعات وأبرع العبارات، وصدح بالصّدق، ونطق بالحقّ، وفاز بالسّبق وحاز الفضيلة على فضلاء الغرب والشّرق؛ فهو لنشر المعاني أضمّ خطيب، له بنشر المعالي أضمخ طيب، فأين قس في عكّاظه من قياس ألفاظه! وأين سحبان من سجعاته! وابن نباتة من نباته! ولوعاشا لافتقرا إلى فقره واحتقرا أعراضهما عند جوهره، ودعا لأمير المؤمنين ثمّ لسلطان المسلمين، ونزل وقام إمامًا أكمل بصلاته الفرض، وأرضى بسَمْتِ دعواته والطّمأنينة في ركعاته وسجداته أهل السّماء والأرض، وسرّ السّلطان بنصبه ورفعه، وامتلأ صدره حبورًا منه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعّة أنوار الخطبة، في سواد الأهبة وعظمت أخطار المهابة في خواطر المحبّة، وكرمت سرائر الزّلفى إلى الله والقربة"[٣].

وجليّ أنّ العماد قد بالغ في مدح الخطيب والتّقريظ على خطبته، حتّى رفعه فوق قسّ بن ساعدة الذّي يضرب بفصاحته الأمثال، كما رفعه على سحبان بن وائل صاحب العجائب في التّراكيب وحامل لواء البيان ، لكنّ الحقّ يقال: إنّ العماد لم يكن ليقول هذا الكلام إلاّ لما وجد في خطبة الخطيب من سحر البيان، والتّوفيق الّذي نال فيها في المعاني والألفاظ، والقول بما يناسب المقام، فقد افتتح الخطيب خطبته

---

(٢) يرى ابن شدّاد أنّ الصّلاة تمّت في يوم الفتح لكنّ ذلك وهم فيما يبدو لي لما ذكر أعلاه ، ولاجتماع أكثر المؤرّخين على عكس ما قال/ ، انظر: ابن شدّاد ، **النّوادر السّلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة** ، ط٢، ص ١٣٥

(٣)ذكر عماد الدّين في سنا البرق ، أنّ الملك العادل نور الدّين بن زنكيّ كان قد أعدّ منبرًا للمسجد الأقصى قبل فتحه ، وهو منبر عظيم تعب في صناعته النّجّارون ، فلمّا فتح السّلطان صلاح الدّين القدس أمر بإحضار ذلك المنبر وفاء بوعد نور الدّين رحمهما الله / انظر: عماد الدّين ، **سنا البرق** ، ص ٣١٤,٣١٥

[3] أبوشامة ، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين** ، ٢٤٧/٣

بكلام ربّ الأنام قاصدًا فيه هزّ القلوب بمعاني الآيات الّتي فيها حمد الإله العليّ العلاّم، وهي المعاني الّتي كان يحملها شعور الحضور في ذلك المقام؛ فهم قبل هذا الفتح في اضطهادات واغتصابات من قبل الأعداء، حتّى كاد يزيغ قلوب بعضهم من شدّة البلاء، ثمّ أتبع الخطيب الاقتباس بالأسجاع، وزيّنها برشاقة الألفاظ، وأردفها الجناسات والطّباقات ووجوه المعاني والبيان، وحسّن تراكيبها ونوّع عباراتها وزخّر ألفاظها بمعانيها الرّاقية وحكمها العالية، ووظّف التّاريخ في الإقناع بفضل البيت فتكلّم عن الإسراء والمعراج، واستقبال المسلمين إليه في صلواتهم في بداية الإسلام، ومدّ الحديث إلى فتوح الرّسول والصّحابة الكرام من بدر وقادسيّة واليرموك ووقعاتها العظام، والّتي من أهمّها للذّكر في ذلك المكان فتوح عمر بن الخطّاب، وقام بعد ذلك بمهمّة الدّاعي الرّاعي في النّصائح والتّواصي؛ فحذّر من الوقوع في المعاصي الّتي يخشى أن تكون سببًا في ذهاب ما هم أصبحوا عليه من المعالي، ومدحهم بشهادات القرآن لما أنجزوه من أعظم الأعمال وقدّموه من أفضل قربان، ودعا للسّلطان والمسلمين والبلاد، وكلّها بأبدع العبارات وأجمل الألفاظ.

المحور الثّاني/ الأنساق الأدبيّة في وصف الفتح وما حوله.

١). **النّثر**: أهمّ النّصوص النّثريّة الّتي تناولت فتح القدس أيّام صلاح الدّين، هي نصّ خطبة القاضي ابن زكي ورسائل التّبشير للفتح وأهمّها رسائل القاضي الفاضل وكتابات العماد، وفيما يلي عرض لهذه النّصوص مع الإشارة إلى المعاني والألفاظ الّتي تشاركت فيها.

أوّلاً/ نصّ خطبة القاضي محيي الدّين ابن زكيّ:

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1]

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[2]

(1) سورة الأنعام، الآية ٤٥

(2) سورة الفاتحة، الآية ٢. ٤

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١ [1] ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرٗا [2]

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤ ﴾ [3]

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩ ﴾ [4]

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢ [5]

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١ ﴾ [6]

الحمد لله معزّ الإسلام بنصره ومذلّ الشّرك بقهره، ومصرّف الأمور بأمره، ومديم النّعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الّذي قدّر الأيّام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتّقين بفضله، وأفاض على عباده من ظلّه، وأظهر دينه على الدّين كلّه، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظّاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع؛ والحاكم بما يريد فلا يدافع.

---

(1) سورة الأنعام ، الآية ١

(2) سورة الإسراء ، الآية ١١١

(3) سورة الكهف، الآية ١,٥

(4) سورة النّمل، الآية ٥٩

(5) سورة سبأ، الآية ١,٢

(6) سورة فاطر، الآية ٢,١

أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدّس من أدناس الشّرك وأوضاره[١]، حمد من استشعر الحمد باطن سرّه وظاهر جهاده[٢].

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لاشريك له الواحد[٣] الأحد الفرد[٤] الصّمد، الّذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، شهادة من طهّر بالتّوحيد قلبه، وأرضى به ربّه.

وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله دافع[٥] الشّرك، وداحض الإفك، الّذي أسرى به[٦] ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السّموات العلى، إلى سدرة المنتهى، عندها جنّة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى.

---

(2) الوضر محرّكة: وسخ الدّسم واللّبن، أو غسالة السّقاء والقصعة ونحوهما، وبقيّة الهناء، وما تشمّه من ريح تجدها من طعام فاسد، واللّطخ من الزّعفران ونحوه، فكلّها تلتقي في معنى الوسخ وهو المقصود به في الخطبة؛ إذ قصد به أوساخ المشركين المزاح عن البيت / فيروز آبادي، **قاموس المحيط**، ص ٤٩٢

(3) في الداية والنّهاية والرّوضتين وفي وفيات الأعيان: " ظاهرجهاره" / انظر: ابن كثير، **البداية والنّهاية**، ص ٢٥١ / وانظر أبوشامة **الرّوضتين** ص ٢٤٨ / وانظر: ابن خلّكان، **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣١

(4) في البداية والنّهاية، والرّوضتين ووفيات الأعيان إسقاط لكلمتي: الواحد والفرد / انظر: ابن كثير **البداية والنّهاية ص** ٣٥١ ، / وانظر: أبوشامة **الرّوضتين** ص٢٤٨ ، / وانظر: ابن خلّكان **وفيات الأعيان**، ص ٢٣١

(5) الفرق بين الواحد والأحد، أنّ الواحد: هو الفرد الّذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر، والأحد: هو الفرد الذّي لا يتجزّأ ولا يقبل الانقسام؛ فالواحد هو المتفرّد بالذّات، في عدم المثل، والأحد هو المتفرّد بالمعنى، والواحد: يطلق على العاقل وغير العاقل، والأحد لا يطلق إلاّ على العاقل، وإذا قيل: واحد فإنّه يمكن أن يكون هناك ثان، أمّا الأحد فليس له ثان، والواحد يستخدم في الحساب والضّرب والعدد والقسمة، ولا يدخل في ذلك الأحد، والواحد: يؤنّث بالتّاء والأحد يستوي فيه المذكّر والمؤنّث، والأحد: يثنّى ويجمع والواحد لا يقبل ذلك. أمّا بين الواحد والفرد فالفرد يفيد الانفراد من القرن والواحد يفيد الانفراد في الذّات؛ تقول: فلان فرد في داره، وفلان واحد أهل عصره؛ أي تفرّد بصفة ليس لغيره في ذلك العصر، واللهّ واحد؛ أي ذاته منفردة من الشّبه والمثل. انظر أبو هلال العسكري، **الفروق اللّغويّة**، ص١٤١,١٤٠، وانظر: شبكة المشكاة الإسلاميّة **معجم الفروق اللّغويّة**.

(1) في البداية والنّهاية وفي الرّوضتين ووفيات الأعيان: "رافع الشّكّ وداحض الشّرك ورافض الإفك" ؛ بزيادة الأولى ، وتغيير في الثّانية ؛ أي : رافض بدل دافع ، وكذلك في الثّالثة ؛ أي : رافض الإفك بدل داحض / انظر: ابن كثير بن **البداية والنّهابة** ص ٢٥١ / وانظر: أبوشامة ، **الرّوضتين في أخبار الدّوليتين** ص ٢٤٨ / وانظر: ابن خلّكان **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣١

(6) في الرّوضتين : الّذي أسرى بعبده ليلاً" / انظر: أبوشامة **الرّوضتين في أخبار الدّوليتين** ، ص ٢٤٨

صلّى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر[١] الصّدّيق السّابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمربن الخطّاب أوّل من رفع عن هذا البيت شعار الصّلبان؛ وعلى أمير المؤمنين عثمان بن[٢] عفّان ذي النّورين جامع القرآن؛ وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مزلزل الشّرك ومكسّر الأوثان؛ وعلى آله وأصحابه والتّابعين لهم بإحسان.

أيّها النّاس: أبشروا برضى الله الّذي هو الغاية القصوى، والدّرجة العليا، لما يسّره الله على أيديكم من استرداد هذه الضّالّة من الأمّة الضّالّة، وردّها إلى مقرّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبًا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الّذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وإماطة الشّرك عن طرقه، بعد أن امتدّ عليها رواقه[٣] واستقرّ فيهارسمه، ورفع قواعده بالتّوحيد، فإنّه بني عليه، وإنّه أسّس بالتّقوى[٤] من خلفه ومن بين يديه، وهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيّكم محمّد عليهما السّلام[٥]، وقبلتكم الّتي كنتم تصلّون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقرّ الأنبياء، ومقصد الأولياء ومقرّ[٦] الرّسل، ومهبط الوحي ، ومنزل تَنَزُّلِ[٧] الأمر والنّهي، وهو في أرض المحشر، وصعيد المنش، وهو في الأرض المقدّسة الّتي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الّذي صلّى فيه رسول الله .صلّى الله عليه وسلّم. بالملائكة المقرّبين، وهو البلد الّذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته الّتي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى، الّذي شرّفه الله برسالته، وكرّمه بنبوّته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى :﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ ﴾[٨]

---

(1) ذكر ابن كثير صفة أبي بكر ولم يذكر اسمه ؛ أي : "وعلى خليفته الصّديق.." / المصدر السّابق ص ٢٥١.

(2) لم يزد أبوشامة كلمة "ابن عفّان" / انظر : أبوشامة **كتاب الرّوضتين** ص٢٤٩

(5) تدور كلمة الرّواق في معنى : الجسم أو مجموعة من الأجسام ، والسّتر ، والظّلام ، والبيت والخيمة ، —ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم في حديث الدّجال: فيضرب رواقه فيخرج إليه كلّ منافق / انظر : ابن منظور ، **لسان العرب** / ط١ ، ص ١٧٨١

(6) في وفيات الأعيان ، زيادة قبل هذه الجملة وهي قوله : "وشيّد بنيانه بالتّمجيد فإنّه أسّس على التّقوى" / ابن خلّكان **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣١

(7) في وفيات الأعيان : "عليه الصّلاة والسّلام" / ابن خلّكان ، **وفيات الأعيان** ، ص : ٢٣٢ ، وذكر العطف في وهو موطن أبيكم فاء .

(6) في وفيات الأعيان : "ومدفن الرّسل" ، المصدر السّابق ص ٢٣٥

(7) في وفيات الأعيان : "ومنزل به ينزل الأمر والنّهي". / المصدر السّابق ، ص٢٣٢

(8) سورة النّساء ،الآية ١٧١

[1]وقال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

وهو أوّل القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشدّ الرّحال[٣] بعد المسجدين إلاّ إليه، ولا تعقد الخناصر[٤] بعد الموطنين إلاّ عليه، ولولا أنّكم ممّن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكّان بلاده، لما خصّكم بهذه الفضيلة الّتي لا يجاريكم فيها مجار، ولا يباريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النّبويّة، والوقعات[٥] البدريّة، والعزمات الصّدّيقيّة، والفتوح العمريّة، والجيوش العثمانيّة، والفتكات العلويّة، جددتم للإسلام أيّام القادسيّة، والوقعات[٦] اليرموكيّة، والمنازلات الخيبريّة، والهجمات الخالديّة.

(3) زاد ابن خلّكان بين هاتين الآيتين جملة طويلة ، وهي قوله : "كذب العادلون بالله وضلّوا ضلالا بعيدًا "ماتّخذ الله من ولد وماكان معه من إله إذا لذهب كلّ إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمّا يصفون " سورة المؤمنون، الآية ٩١\ابن خلّكان، المصدر السّابق، ص ٢٣٢

(2) سورة المائدة ،الآية ١٧

(5) من حديث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم : " لا تشدّ الرّحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، ومسجد الحرام ، ومسجد الأقصى" أخرجه الإمام مسلم في **صحيح مسلم** ،كتاب الحجّ ، باب لا تشدّ الرّحال ، ص ٦٢٨

(6) يقال فلان تثنى به أو إليه الخناصر ؛ أي يبدأ به إذا ذكر أشكاله وأمثاله لشرفه ، ويقال: هذا أمرتعقد عليه الخناصر ؛ أي يعتدّ يه ويحتفظ عليه ، / مجمع اللّغة العربيّة ، **المعجم الوسيط** ، ط٤ ، ص٢٥٩ / والخنصر بكسر الصّاد وفتحها ، الإصبع الوسطى أو الصّغرى ، وخناصرة بالضّمّ د بالشّام من عمل حلب / الفيروز آبادي ، **قاموس المحيط** ص ٣٨٨

(5)في وفيات الأعيان : "الواقعات البدريّة" / ابن خلّكان ، **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٣

(6) في وفيات الأعيان : " الملاحم اليرموكيّة " بدلا من الوقعات / المصدر السّابق ، ص ٢٣٣

فجزاكم[١] الله عن محمّد[٢] نبيّه أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم[٣] في مقارعة الأعداء، وتقبّل منّا[٤] ومنكم ما تقرّبتم به إليه من مهراق الدّماء، وأثابكم الجنّة فهي دار السّعداء، فاقدروا — رحمكم الله. هذه النّعمة، حقّ قدرها، وقوموا لله[٥] بواجب شكرها،

فله النّعمة[٦] عليكم بتخصيصكم بهذه النّعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتح الّذي فتحت له أبواب السّماء، وتبلّجت بأنواره[٧] الظّلماء، وابتهج الملائكة المقرّبون، وقرّ به عينًا الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النّعمة بأن جعلكم الجيش الّذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزّمان، والجند الّذي يقوم بسيوفهم بعد فترة من الرّسل[٨] أعلام الإيمان، فيوشك[٩] أن تكون التّهاني به بين أهل الخضراء[١٠] أكثر من التّهاني به بين أهل الغبراء.

أليس هو البيت الّذي ذكره الله في كتابه، ونصّ عليه في[١١] خطابه؟ فقال تعالى: **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾[12].

---

(1) في الرّوضتين "فجازاكم" / أبوشامة ، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين** ، ص ٢٥٠

(2) في الرّوضتين تقديم وتأخير ؛ أي : "نبيّه محمّد" /انظر: المصدر السّابق ، ص ٢٥١

المهجة : دم القلب ، والرّوح ، يقال : خرجت مجته وبذلت له مهجتي / مجمع اللّغة العربيّة ، **قاموس المحيط** ، (3)ص٨٨٩

(4) لم ترد هذه اللّفظة عند أبي شامة / انظر: أبوشامة **الرّوضتين في أخبار الدّولتين** ، ص ٢٥٠

(5) زاد ابن خلّكان لفظ "تعالى" بعد لفظ الجلال / ابن خلّكان ، **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٣ .

(6) في وفيات الأعيان : "فله المنّة " ، بدلا من "النّعمة" / المصدر السّابق ، ص ٢٣٣

(7) في الرّوضتين ومفرّج الكروب زيادة "وجوه الظّلماء" / انظر: أبوشامة ، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين** ص ٢٥٠

(8) في الرّوضتين : "النّبوّة " ، بدلاً من : "الرّسل". / انظر: المصدر السّابق ، ص ٢٥٠

(10) بين هاتين الكلمتين عند ابن خلّكان عبارة : "أن يفتح على أيديكم أمثاله" ، وقوله : "أن تكون التّهاني به بين أهل الخضراء أكثر من التّهاني به بين أهل الغبراء "هذه عنده" وأن تكون التّهاني لأهل الخضرا أكثر من التّهاني لأهل الغبراء " / ابن خلّكان ، **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٣

(10) يقصد بها السّماء ، والغبراء : الأرض .

(11) زاد ان خلقان : "في محكم خطابه" ،ابن خلّكان **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٣

(12) سورة الإسراء،الآية ١

أليس هو البيت الّذي عظّمته الملوك[١]، وأثنت عليه الرّسل، وتليت فيه الكتب الأربعة من إلهكم عزّ وجلّ؟

أليس هو البيت الّذي أمسك الله عزّ وجلّ فيه[٢] الشّمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسّر فتحه ويقرب؟

أليس هو البيت الّذي أمر الله تعالى موسى أن يأمرقومه باستقاذه فلم يجبه إلاّ رجلان، وغضب عليهم من أجله، وألقاهم في التّيه عقوبة[٣] العصيان؟

فاحمدوا الله الّذي أمضى عزائمكم لما نَكَلَتْ عنه بنو إسرائيل وقد فضّلهم[٤] على العالمين، ووفّقكم لما خذل[٥] عنه أمم ممّن[٦] كان قبلكم من الأمم الماضية، وجمع كلمتكم وكانت شتّى، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتّى.

فليهنكم أنّ الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم بعد أن كنتم جنودًا لأهويتكم جنده، وشكرلكم الملائكة المنزّلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التّوحيد، ونشر التّقديس والتّحميد، وما أمطتم فيه عن طرقهم من أذى الشّرك والتّثليث، والاعتقاد الفاسد[٧] الخبيث، فهو الآن يستغفرلكم أملاك السّموات، ويصلّى عليكم الصّلوات المباركات.

فاحفظوا .رحمكم الله. هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النّعمة عندكم بتقوى الله الّتي من تمسّك بهاسلم، ومن اعتصم بعروتها نجاوعصم، واحذروا من اتّباع الهوى، ومواقف[٨] الرّدى، ورجوع القهقرى، والنّكول[٩]

---

(3) في وفيات الأعيان : "عظّمته الملل" ، ويبدولي أنّ هذه اللّفظة أنسب وأليق بالسّياق أكثر من غيرها لانتهائها باللاّم الّتي هي قافية السّجع في تلك العبارة / ابن خلّكان ،**وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٣

(2) هذه اللّفظة ساقطة عند أبي شامة ؛ أي لفظة "فيه" / انظر: أبوشامة **الرّوضتين في أخبار الدّولتين** ، ص ٢٥١

(3) عند ابن خلّكان : "عقوبة للعصيان" ، لكنّه ثقيل في السّياق / ابن خلّكان **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٣

(6) عند ابن خلّكان : "فضّلت " ، المصدر السّابق ، ص ٢٣٣

(7) عند ابن خلّكان : "خذل فيه" ، المصدر السّابق ، ص ٢٣٣

(8) في الرّوضتين : "لما خُذل من كان قبلكم من الأمم الماضيين" / انظر: أبو شامة ، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين** ، ص ٢٥١ ، وعندابن خلّكان: "لما خذل فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين" وزاد : "وجمع لأجله كلمتكم" ، / ابن خلّكان ،**وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٣

(1)الفاجر ، عند ابن خلّكان / ابن خلّكان ، **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٣

(2) في الرّوضتين ووفيات الأعيان : "موافقة الرّدى" / أبوشامة ، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين** ، ص :٢٥١ / وابن خلّكان ، **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٣

(9) نكل عن الأمرنكولا : جبن ونكص ، يقال : نكل عن العدوّ : مجمع اللّغة العربيّة ، **المعجم الوسيط** ، ص٩٥٣

عن العدى، وخذوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغصّة[١]، وجاهدوا في الله حقّ جهاده، وبيعوا أنفسكم عباد الله في رضاه إذ جعلكم من عباده، وإياّكم أن يستزلّكم الشّيطان، وأن يتداخلكم الطّغيان، فيخيّل[٢] إليكم أن هذا النّصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم في موضع[٣] الجلاد[٤]، والله ما النّصر إلاّ من عند الله، "إنّ الله عزيزحكيم".

واحذروا .عباد الله. بعد أن شرّفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصّكم بهذا النّصر المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين، أن تقترفوا كثيرًا من مناهيه، وأن تأتوا عظيمًا من معاصيه، فتكونوا كالّتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثًا، والّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشّيطان فكان من الغاوين، والجهادَالجهادَ، فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم[٥]، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جدّوا في حسم الدّاء، وقطع شأفة [٦] الأعداء، وتطهير بقيّة الأرض الّتي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثّوا أصوله، فقد نادت الأيّام[٧] بالثارات الإسلاميّة، والملّة المحمّديّة.

الله أكبر، فتح الله ونصر، وغلب الله وقهر، وأذلّ الله من كفر.

واعلموا .رحمكم الله. أنّ هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمّة فأخرجوا إليها هممكم وأبرزوها[٨]، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهّزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدوّ

---

(1) الغصّة ماعترض في الحلق من طعام أو شراب / المصدر السّابق ، ص ٦٥٤

(2) "يخيّل لكم " ، في وفيات الأعيان / ابن خلّكان ، **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٣

(3) "في مواطن الجلاد " ، عندابن خلّكان ، وكذلك : "لا والله ما النّصر إلاّ من عند الله".

(7) الجلاد: من مادّة جلُد جلادة وجلودة ، وجلدًا ؛ الشّدّة والقوّة والصّبر على المكروه / انظر: فيروز آبادي ، **القاموس المحيط**، ص ٢٨١ \ وفي المعجم الوسيط: الجلاد: الضّرب بالسّيف ، يقال: جالده بالسّيف ونحوه مجالدة وجلادًا ؛ أي ضاربه به ، وفي المثل: لولا جلادي غُنم تلادي ؛ أي لولا مدافعتي عن مالي سلب وأُخذ / انظر: مجمع اللّغة العربيّة ، **المعجم الوسيط** ، ص ١٢٩

(8) زاد ان خلقان هنا: "احفظوا الله يحفظكم " ، وكذلك " قلع شافة الأعداء" ، بدلاً من "قطع" ، و"طهّروا" بدلاً من: "تطهير" ، وزيادة: "من هذه الأنجاس" بين كلمة:"الأرض" ، وكلمة: "أغضبت".

(1) الشّأفة: قرحة فتستأصل باالكيّ ، وشأْفَتَهُ ؛ أي أزاله من أصله / مجمع اللّغة العربيّة ، **المعجم الوسيط ص** ٤٦٩ / وكلا المعنيين يناسب سياق الكلام ؛ فالشّرك المزاح عن المسجد وسخ كان قد تمكّن فيه ، وتمكّنهم فيه كان قد أغراهم أن يتّخذوه مقرًّا رئيسًا لهم في شؤونهم الدّينيّة.

"باللثّارات الإسلاميّة " ، عند ابن خلّكان / ابن خلّكان ، **وفيات الأعيان** ص ٢٣٤

(2) في الرّوضتين : "فأخرجولها هممكم وبرّزوها " / انظر: ابوشامة ، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين** ، ص ٢٥١ (٨)

المخذول وهم مثلكم أودون[١]، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ٦٥ ﴾ [٢].

أعاننا الله وإيّاكم على اتّباع أوامره والازدجار بزواجره، وأيّدنا معشر[٣] المسلمين بنصر من عنده، "إن ينصركم الله فلاغالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الّذي ينصركم من بعده".[٤]

اللهمّ وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك الشّاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك، سيفك القاطع، وشهابك اللاّمع، والمحامي عن دينك الدّافع، والذّابّ عن حرمك وحرم رسولك الممانع، السّيّد الأجلّ الملك النّاصر جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصّلبان، صلاح الدّنيا والدّين، سلطان الإسلام والمسلمين، ومطهّر البيت المقدّس، أبي المظفر يوسف (صلاح الدّين) بن أيّوب، محيي دولة أمير المؤمنين.

اللهّم عمّ بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدّين الحنيفي جزاءه، واشكر عن الملّة المحمّديّة عزمه ومضاءه.

اللهمّ أبق للإسلام مهجته، ووق للإيمان حوزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته.

---

(3) في الرّوضتين ووفيات الأعيان: "أو يزيدون" / المصدر السّابق ، ص ٢٥١ / وابن خلّكان ، **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٤ ، وأيّهما قصد الخطيب فقد أصاب بتعليله بعد ذلك بقوله : "وقد أصبح في قبالة الواحد منكم منهم عشرون" ؛ فإذا كانوا مثل المسلمين في الظّاهر فهم دونهم في حساب الله ، وكذلك إذا كانوا أكثر منهم لأنّ المسلم الواحد يساوي في القوّة عشرين رجلاً من الكفّار.

(4) سورة الأنفال، الآية ٦٥

(5) "معاشر المسلمين" ، بالجمع عند ابن خلّكان \ ابن خلّكان ، **وفيات الأعيان** ، ص ٢٣٤

(6) قسيّ الكلام ، وأمضى قول تحلّ به الأفهام ، كلام الواحد الفرد العزيز العلاّم ، قال الله تعالى : "وإذا قئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم ترحمون ، أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم بسم الله الرّحمن الرّحيم ، وقرأ أوّل الحشر ، ثمّ قال آمركم وإيّاي بما أمر الله به من حسن الطّاعة فأطيعوه ، وأنهاكم وإيّاي عمّا نهاكم عنه من قبح المعصية فلا تعصوه ، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه" / المصدر السّابق ، ص ٢٣٥

اللهمّ فكما فتحت على يديه البيت المقدس، بعد أن ظنّت به[١] الظّنون، وابتلى المؤمنون، فافتح على يديه داني[٢] الأرض وقواصيها، وملكه صياصي الكفرة ونواصيها فلا تلقاه منهم كتيبة إلاّ مزّقها، ولا جماعة إلاّ فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلاّ ألحقها بمن سبقها.

اللهمّ اشكر عن محمّد .صلّى الله عليه وسلّم. سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها.

اللّهمّ ذلّل به معاطس الكفّار، وأرغم به أنوف الفجّار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار، واثبت سرايا جنوده في سبيل الأقطار.

اللهمّ ثبّت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدّين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه و أوليائهم.

اللهمّ فكما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة الّتي تبقى على الأيّام، وتتخلّد على مرور الشّهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي الّذي لاينفد في دار المتّقين، وأجب دعوته ودعاءه في قوله: "رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩ "[٣].

ثانيًا/ الرّسائل: كتبت في هامش فتح القدس رسائل كثيرة إلى الشّخصيّات الإسلاميّة وإلى البلاد تبشّر بالفتح، وهذه الرّسائل مكتوبة من قبل كتّاب كثيرين يأتي على رأسهم العماد الكاتب الأصفهاني، وسوف نبدأ برسائله قبل غيره.

إنّ من يقرأ تاريخ القدس وفتحه يجد أنّ الكاتب الأصفهانيّ يمثّل بطل الرّواة في ذلك؛ فقد تنوعّت كتبه في هذا الموضوع وكثرت أساليبه فيها؛ فمن كتبه: الفتح القسّي في الفتح القدسيّ الّذي عرضه على القاضي الفاضل بعد تأليفه فأثنى عليه وآثر أن يسمّيه (الفتح القسّي في الفتح القدسي) لما فتح الله عليه فيه

(1) الجار والمجرور غير موجودين عند أبي شامة وكذلك عند ابن خلكان / انظر: أبوشامة ، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين**، ص ٢٥٢ / وانظر: ابن خلّكان ،**وفيات الأعيان** ، ص ٢٥٣

(2) سورة النّمل ،الآية ١٩

(3) جمال الدّين محمّد بن سالم بن واصل ، **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب** ، ٤/١ ، ص ٢١٨,٢٢٧

بفصاحة قسّ بن ساعدة، ولما وفّق في تناول قضايا الفتح بشكل لم يسبق إليه، ومن كتبه كذلك، البرق الشّامي، وسنا البرق وغيرها.

أمّا أساليبه الّتي نوّعها في هذه الكتب فهي: سرده الوقائع كلّها بأسلوبه البديع وعباراته المسجوعة، وإيراده بعض نصوص رسائله فيها، وكذلك نصوص قصائده عند ذكر الأحداث المتعلّقة بها .

أمّا رسائله، فممّا يؤكّد بطوليته فيها أنّه عند فتح القدس كان مريضًا حتّى تحسّنت حاله بُعيد الفتح، وكان في دمشق للعلاج، فلمّا كان النّاس في استعجال لكتابة رسائل البشرى عن الفتح إلى الشّخصيّات والبلاد قال لهم السّلطان: "لهذه القوس ثار، ولهذه المأدبة نار، ولهذا الوادي من سبيل الخاطر الفلاني ..."، قال العماد: "حتّى قبلت وجاءهم الرّيح وركدت الرّيح وفاح العرار ورمى الشّيح وقالوا: مرحبًا بمن صبّحنا وجهه الصّبيح ولقيني السّلطان بكلّ عرف بهيج... .قال. وكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة وكلّ كتاب بمعنى بديع وعبارة...[١]".

وقد تأثرت خطبة القاضي ابن زكيّ بكثير من معاني رسائل العماد، .ويبدو لي أنّ الّذي استفاد من غيره هو العماد؛ إذ كانت الخطبة قبل كتابة رسائله حسب ماذكره هو نفسه في كتبه.؛ ففي رسالة العماد إلى (الدّيوان العزيز) وصف البيت المقدس بثاني المسجدين وثالث الحرمين، وإشارة إلى أنّ به مواقف الأنبياء ففتحه تطهيره من أدناس الكفّار يقول: "... فهو ثاني المسجدين، بل ثالث الحرمين، فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدّس من الأسر، وإسفار صبح الإسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر، وتطهير مواقف الأنبياء صلوات الله عليهم من أدناس الأرجاس ..."، كما فيه ذكر شرف زمان السّلطان بسبب الفتح، يقول: "وجعل عصر أمير المؤمنين صلوات الله عليه على الأعصر مفضّلاً، وكمّل بهذا الفتح الشّريف شرف زمانه فأصبح فخر الدّين به والدّنيا مكمّلاً "، كما أشار إلى التّغيير الّذي حصل في القدس من نقله من دار الكفر إلى دارالإيمان، وتعزيز المسلمين فيه وتذليل الكفّار، بأساليب عديدة وكلمات في صيغ كثيرة؛ فمنها قوله: "ولقد حلّ الكفر عروة عروة، وهدّ ذروة ذروة، وعادت حباله رثاثًا وعقوده أنكاثًا..."، ومنها: "ونجوم الرّجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الإيمان منقضّة .."[٢].

وهذه المعاني كلّها موجودة في خطبة القاضي ابن زكيّ بل حتّى ألفاظ بعضها؛ ففي وصف البيت قوله: "وهو أوّل القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشدّ الرّحال بعد المسجدين إلاّ إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلاّعليه..." ،كما أنّ وصفه بموقف الأنبياء يوافق قول الخطيب "وهو مقرّ الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقرّ الرّسل، ومهبط الوحي.."، وفي الإشارة إلى فضل عصر السّلطان موافقة لقوله في

---

(1) عماد الدّين ، **سنا البرق** ، ص٣١٣

(2) عماد الدّين الأصفهاني ، **الفتح القسّي** ، ص٨٢,٨٣

الدّعاء: "اللهمّ فكما فتحت على يديه البيت المقدس، بعد أن ظنّت به الظّنون، وابتلي المؤمنون..."؛ فإنّ الظّنون لم تظنّ إلاّ لكون الملوك قبله قطعوا عن فتحه رجاءهم حتّى كان عصر السّلطان هو الشّاهد على هذا الخير والحائز على ذلك الفضل، وكان قبل هذا الكلام قوله: "فاقدروا .رحمكم الله. هذه النّعمة ، حقّ قدرها، وقوموا لله بواجب شكرها، فله النّعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النّعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة..."، وكلّها في ذلك المعنى، وفي التّنويه بالتّغيير الّذي حصل بأرض القدس يقول القاضي ابن زكيّ: "أيّها النّاس أبشروابرضى الله الّذي هو الغاية القصوى، والدّرجة العليا، لما يسّره الله على أيديكم من استرداد هذه الضّالّة من الأمّة الضّالّة، وردّها إلى مقرّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبًا من مائة عام"، كما فيه قوله: "الله أكبر، فتح الله ونصر، وغلب الله وقهر ، وأذلّ الله من كفر"؛ فالضّالّة المستردّة هي القدس، كناية عن خروجها من أيدي الكفّار إلى أيدي المسلمين، والفتح فتح القدس، والنّصر انتصار المسلمين على الكفّار ، والغلبة لجيش المسلمين على جيش الصّليبيّين، والقهر قهر الله الكفّار بإخراجهم منها وهم كارهون.

وقد أورد رسالة أخرى طويلة في الفتح القسّي وجّهها إلى أخيه سيف الإسلام .سلطان اليمن. ومنها الكلام عن فتح البيت بعد مكثه تسعين عامًا ونيفا في أيدي الكفّار، وهو يوافق في معناه قول الخطيب: "... بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبًا من مائة عام"؛ فإنّ النّيف والتّسعين ليس بعيدًا عن مائة؛ ولذلك فهو قريب من مائة عام، كما تكلّم فيها عن اعتقاد المسيحيّين المزاح عن هذا المكان، وهو الاعتقاد بالتّثليث الّذي هو الشّرك بعينه، في قوله: "وأربع فيه التّثليث فعزّ صليبه وصلبه [1]"، وذلك يوافق قول الخطيب: "... وما أمطتم فيه عن طرقهم من أذى الشّرك والتّثليث"، وكذلك معنى قوله: "وهو البلد الّذي بعث الله عبده ورسوله وكلمته الّتي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى، الّذي شرّفه الله برسالته، وكرّمه بنبوّته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى :﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ ﴾[2]

وقد أورد أبو شامة في الرّوضتين رسائل أخرى كتبت بعيد الفتح بدون ذكر كاتبيها ويبدو لي أنّ تلك الرّسائل أيضًا للعماد؛ فكلّها تتناول نفس الموضوع بأساليب متقاربة، والفروق بينها في صيغ التّعابير وقليل من المعاني؛ ومن المعاني الزّائدة في بعضها والّتي يمكن التماس أشباهها في كلام الخطيب، الكلام عن

---

[1] عماد الدّين، **الفتح القسّي** ، ص ١٠٥

[2] سورة النّساء، الآية ١٧٢

الإسراء والمعراج وذلك من قوله: "وتسلّمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج [١]"؛ فإنّ ذلك يوافق في وجه لقول الخطيب" أليس هو البيت الّذي ذكره الله في كتابه ، ونصّ عليه في خطابه ؟ فقال تعالى :﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾ [٢] ، وقوله: " وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله دافع الشّرك، وداحض الإفك، الّذي أسري به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعَرَج به منه إلى السّموات العلى، إلى سدرة المنتهى..."، والعماد إنّما ذكر تاريخ الفتح المناسب لليلة المعراج تنويهًا لشرف البيت وإن لم يصرّح به، وهو المعنى المصرّح به في قولي الخطيب المذكورين.

وقد ذكر ابن خلّكان في وفيات الأعيان رسالة طويلة كتبها القاضي الفاضل إلى الإمام النّاصر لدين الله بالعراق، وقد وصف فيها معركة حطّين والمعارك التّمهيديّة الّتي خاضها المسلمون وصولاً إلى فتح القدس، ومنها ذكر نصر الله المؤمنين بإنزال الملائكة وذلك في قوله: "وقد كان الخادم لقيهم اللّقاة الأولى فأمدّه الله بمداركته، وأنجده بملائكته[٣]"، وهو يوافق قول الخطيب: "فهذا هوالفتح الّذي فتحت له أبواب السّماء، وتبلّجت بأنواره الظّلماء، وابتهج الملائكة المقرّبون"، كما تحدّث عن التّليث في قوله: "وأقيمت الخمس وكان التّثليث يقعدها.."، وهو يوافق ما سبقت الإشارة إليه من كلام الخطيب عند الوقوف على رسائل العماد .

٢). الشّعر (القصائد القدسيّة):

هناك شبه كبير بين خطبة القاضي ابن زكيّ، وكثير من أعمال أهل عصره، من حيث المعاني الواردة فيها، بل حتّى في بعض ألفاظها، ولعلّ سبب ذلك التقاؤهم في نطاقات عديدة: دينيّة، واجتماعيّة، وتاريخيّة؛ فالاستقاء من ينبوع القرآن وأحاديث خير الأنام، والعصر عصر حروب صليبيّة وغيرها، والّتي توزّعت الانتصارات فيها والانهزامات بين المسلمين والأعداء، من زمن لآخر، خاصّة وأنّ تلك الكتابات أكثرها في موضوع فتح القدس.

---

(2) أبوشامة، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين**، ص٢٢٤ ، ويلاحظ تكرير هذا المعنى عند العماد في كثير من كتاباته ؛ فقد ذكره في الفتح القسّي لما أراد ذكر يوم الفتح في ص ٧٣ ، وعنه نقل أبوشامة وذكره في كتابه ، ص : ٢٢١ ، وفي ص٢٢٩ ، وفي الرّسائل الموجّهة إلى مختلف البلاد.

(2) سورة الإسراء، الآية ١

(3) ابن خلّكان، **وفيات الأعيان** ، ٧/١ ، ص ١٨٢

وتتعلّق بالخطبة بعض كتابات الخطيب نفسه الّتي تعبّر عن أهليته لهذا المنصب وأولويته في نيل هذا المأرب، والّتي يلتمس لها نظائر أخرى في الفترات قبل الفتح، فقد ورد في كثير من الكتب التّاريخيّة والمتّصلة أكثر بحروب الصّليبيّين، وفتوحات السّلطان صلاح الدّين، بيت ينسبونه إلى القاضي ابن زكيّ، وأنّه قاله مدحًا للسّلطان لمّا فتح حلب، وهو قوله:

وَفَتْحُكَ الْقَلْعَةَ الشَّهْبَاءَ فِي صَفَرٍ ** مُبَشِّرٌ بِفُتُوحِ الْقُدْسِ فِي رَجَبٍ(١)

فكان هذا البيت سببًا في حصوله على فرصة إلقاء خطبته من بين العديد من العلماء؛ لإعجابه به السّلطان صلاح الدّين؛ فإنّ الفتح الّذي بشّر به قبل وقوعه بأربع سنوات قد تمّ، وفي الوقت الّذي حدّده، وهو شهر رجب؛ فقد كان تاريخ الفتح اليوم السّابع والعشرين من شهر رجب، ولمّا سئل القاضي ابن زكيّ عن مصدر تنبّئه الّذي وفّق فيه قال بكلّ أمانة علميّة: "أخذته من تفسير ابن برّجان في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ (٢)

قال ابن خلّكان: "ولمّا وقفت أنا على هذا البيت وهذه الحكاية، لم أزل أتطلّب تفسير ابن برّجان حتّى وجدته على هذه الصّورة، وذكر له حسابًا طويلاً وطريقًا في استخراج ذلك حتّى حرّره من قوله :(٣) "بِضۡعِ سِنِينَ" .(٤)

---

(1) ابن خلّكان ، **وفيات الأعيان** ، ص:٢٢٩ ، وذكر البيت عماد الدّين في سنا البرق برواية أخرى وهي: وفتحكم حلبًا بالسّيف في صفر # مبشّر بفتوح القدس في رجب / عماد الدّين ، **سنا البرق** ، ص٢٢٦

(2) سورة الرّوم ، الآية ١,٤

(3) ابن خلّكان ، **وفيات الأعيان**، ص٢٣٠

(4)يعتمد تفسير ابن برّجان لهذه الآيات على أشياء خمسة :

الأوّل : قراءتين لها (غُلبت الرّوم وغَلبت الرّوم)

الثّاني : روايتين تحدّد وقت نزول السّورة ، وهما :

أ. أنّها نزلت وقت غلبة فارس على الرّوم ؛ أي في عام ٨ من البعثة ؛ أي ٥سنوات قبل الهجرة.

ب. أنّها نزلت في وقت غلبة الرّوم على فارس ؛ أي بعد الهجرة بسنة و٩ أشهر .

الثّالث :أسرار كلمة : "بضع" ؛ وهي أنّها تطلق على العدد من ٣إلى ٩.

الرّابع : تحديد المكان "في أدنى الأرض" ، وهي بلاد الشّام وبالتّحديد : القدس وما حولها.

الخامس : معنى كلمة السّنة في أصل دلالتها عند العرب ؛ وهو أنّها تعني : ١٠٠٠ شهر.

ولهذا البيت أشباهه من أبيات عصر الخطيب في التّنبّؤ بالفتوح، ومنها: قصيدة العماد في مطالبة السّلطان بجارية من سبي الأسطول المنصور في السّنة الثّانية والسّبعين وخمسمائة وكذلك سبي القدس قبل فتح كلّ منهما، فكان أمله موفّقًا فأعطاه السّلطان تلك السّنة ما سأل، وكذلك في سنة فتح القدس، وهي:

يومل المملوك مملوكة ** تبدّل الوحشـــة بالأنـــس

تخرجه من ليل وتواسيه ** بطلعة تشرق كالشّمـــس

فوجدة الغربة قد حركت ** سواكن البلبال والـــمسّ

وبذلك يكون التّحليل على النّحو الآتي :

إنّ ابن برّجان اختار القراءة الثّانية للآية ليؤكّد على أنّ نزولها كان عند غلبة الرّوم على فارس بعد سنة و٩ أشهر من الهجرة ، وبذلك تكون بشراهم بالغلبة القادمة بعد غلبة عمر عليهم عام ١٥من الهجرة ؛ فسيغلبون : أي بعد غلبة عمر عليهم سيغلبون وذلك الّذي تمّ في السّنة ٤٨٩هـ ، وكانت تلك الغلبة في بضع سنين —خلال ستّة سنوات. كما في الآية الكريمة ، وذلك إذا اعتبرنا السّنين سنوات العرب وهي (١٠٠٠شهر) فنقسّم ١٠٠٠على ١٢ (أي عدد أشهر السّنة عندنا الآن) =٨٣,٣ سنوات هجريّة ، فنضرب ٨٣,٣هـ في ٦=٤٩٩هـ ، وهذا هو بضع السّنين ؛ أي السّنة السّادسة حسب =حساب العرب ، ويدخل في هذا البضع سنة ٤٨٩ ، وهي سنة احتلال الصّليبيّين للقدس وقتلهم للمسلمين ، ثمّ يُغلبون بعد هذا الغلب وهو الّذي كان متوقّعًا.حسب ابن برّجان.أن يقع في السّنة :٥٨٣ هـ؛ أي السّنة السّابعة في حساب العرب وقدتمّ.

وعلى أيّ شيء يعتمد ابن برّجان ليؤكّد هذا الأخير؟ على أنّ كلمة بضع يدخل فيها العدد ٧فتوقّع الفتح في السّنة السّابعة لأنّه كان بين غلبة فارس على الرّوم وغلبة الرّوم على فارس ٧سنوات.

إذًا : ٤٨٩هـ+٨٣,٣هـ=٥٨٣هـ ، وهذا هو الموعد الّذي تمّ فيه الفتح بلازيادة ولانقصان ، فسبحان الله الّذي ألهم هذا العالم بهذه النّجابة والفطنة.

وخلاصة الكلام في تفسير الآية أن نقول : غلبت الرّوم على فارس في حربهم الثّانية معهم وهم من بعد غلبهم هذا سيغلبون أيضًا.إلاّ أنّ المغلوب عليهم الموعود لهم لم يميّز فلا يعني بالضّرورة أن يكون الرّوم أيضًا . في بضع سنين (بحساب العرب في القديم) ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله الآتي وراء نصر الرّوم وهو نصره لهم يوم الانتصار على الصّليبيّين في البضع السّابع ، وبالتّحديد سنة ٥٨٣هـ ، مقارنة بالمدّة الزّمنيّة الّتي كانت بين هزيمة الرّوم أمام فارس في حربهم الأولى وانتصارهم عليهم في الحرب الثّانية ، وهي سبع سنوات والفرق بين المدّتين في المرحلتين :

أنّ الأولى كانت بحساب العرب الجديد ، والثّانية بحساب العرب القديم. ./ انظر ابن برّجان اللّخمي ، **تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم وتعرّف الآيات والنّبأ العظيم** ، ط١ ، ص ٣٢٢,٣٢٨.

فلا تدع يهدم شيطانه ما ** أحكم التّقوى من الأس

فوقع اليوم بمطلوبه ممّـا ** سبى الأسطول بالأمس

وإنّني آمل بعده كرايم ** السّـبي من الـــقدس[١]

ومنها قول الخطيب الجلياني لمّـا ولّي صلاح الدّين أمر مصر:

لتَظْفَرَنّ بما لم يحوه ملك ** أبا المظـفّــر حظًّا خطَّــه الأزل

دليل ذلك آراء لك اقترنت ** بالحزم والعزم لم يُخْصَص بها الأُول

فهذه الأبيات قيلت قبل أن يُملّك صلاح الدّين زمام كلّ الأمور، فكان له بالفعل كلّ ماتمنّاه له.

وذكر أبوشامة بيتين لرجل يسمّى النّسْر تنبّأ بهما فتح القدس قبل وقوعه بعشر سنوات: وهما:

مَلَك الصّياصي الصّواصي ناصرٌ ** للدّين بعد إياسه أن ينصرا

وسيفتح البيت المقدّس بعدما ** يُطوى الطِّراز له ويَقتُل قيصر

ومن القصائد القدسيّات الّتي يمكن إدراك بعض معاني خطبة القاضي ابن زكيّ فيها، قصائد الخطيب الجلياني، ومنها قوله في تشجيع السّلطان على الفتوح:

فياملكًا لـم يبق للدّين غيـره ** وَهَتْ عُمُد الإسلام فاشدُدْ لها دعما

فشُؤم فريق الشّرك في الشّام طائر ** فقُصّ جناحيه بأقصى القُوى قَصما

خُصِصت بتمكين فعُمّ العِدى ردى ** فإنّـــــهم يأجوج أفرغ بها ردمـــا

فذا المسجد الأقصى وهمّتك العلى ** وعزمتك القصوى ورميتك الأصمى

فإن أنت لم تُرْدِ الفرنج بوقعـة ** فمن ذا الّذي يقوى لبنيانها هدمـا

وليس كفتح القدس مُنية قـــادر ** وما آن يُلقاها سوى يوسفٍ حزمـــا[٢]

فهذه الأبيات وإن كانت تُفهمُ من معانيها أنّها قيلت قبل الفتح، فإنّها تُعدّ من القصائد الحربيّة الّتي ساعدت على تحقيق الفتوح والّتي منها فتح القدس، وهي في هذا المعنى توافق بعض أقوال الخطيب في

---

(1) عماد الدّين ، **سنا البرق** ، ص٢٢٦

(2) أبوشامة، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين** ، ص ٢٦٣

تشجيع المسلمين على مواصلة سيرهم لفتح ما بقي من البلاد وانتهاز الفرص قبل فوات الأوان، يقول الخطيب: "والجهادَ الجهادَ، فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم، انصروالله ينصركم، اذكروالله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جدّوا في حسم الدّاء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقيّة الأرض الّتي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثّوا أصوله، فقد نادت الأيّام بالثارات الإسلاميّة، والملّة المحمّديّة"، ويقول أيضًا: "واعلموا .رحمكم الله. أنّ هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمّة فأخرجوا إليها هممكم وأبرزوها، وسيروا إليهاسرايا عزماتكم وجهّزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها".

وفي هذا المعنى يقول العماد:

ودمّر على الباقين واجتثّ أصلهم ** فإنّك قد صيّرت دينارهم فَلسا

وإن بلاد الشّرق مظلمة فخذ ** خراسان والنّهرين والتّرك والفــرسا

وبعد الفرنج الكُرج فاقصد بلادهم ** بعزمك واملأ من دمائهم الرّسا

ومنه قول نجم الدّين يوسف بن الحسين بن المجاور الوزير العزيزي :

فخذ الخراج من البسيطة كلّها ** واستأد فرضي جزية وموظّف

واقبض على الدّنيا بكفّ زهادة ** وابسط لرحمتها جناح تعطّف[١]

وله في مدح السّلطان لإيقافه التّثليث وإحلاله مكانه التّوحيد قوله:

قد أنصف التّثليث من توحيدهم ** وأقام في الإنجيل حدّ المصحف

وللخطيب الجلياني في الكلام عن التّثليث أبيات من قصيدة مطلعها:

الله أكبر أرض القدس قد صفرت ** من آل الأصفر إذ حين به حانوا

وقد تمنّى فيها إزاحة القائلين بالثّالوث عن أرض القدس وتحويلهم إلى موحّدين ،كما مدح فيها السّلطان رحمه الله تعالى، ومنها قوله:

حتّى يوحّدَ أهلُ الشّرك قاطبة ** ويَرْهبَ القول بالثّالوث رهبانُ

ومن أحقّ بملك الأرض من ملك ** كأنّه مَلَك في الخلــق حنّانُ[٢]

---

(1) أبوشامة، **الرّوضتين في أخبار الرّوضتين** ، ص ٢٣٧

(2) المصدر السّابق، ص ٢٦٢

ومن أبيات له في قصيدته الفتحيّة النّاصريّة شبّه فيها معارك السّلطان بالقادسيّة، وشبّه السّلطان بعمر بن الخطّاب وهو قوله:

أما رأيتم فتوح القادسيّة في ** أكناف لوبيّة تُجلى وذا عمر[١]

فهذا يوافق في معناه قول الخطيب: "فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النّبويّة، والوقعات البدريّة، والعزمات الصّدّيقيّة، والفتوح العمريّة، والجيوش العثمانيّة، والفتكات العلويّة، جددتم للإسلام أيّام القادسيّة، والوقعات اليرموكيّة، والمنازلات الخيبريّة، والهجمات الخالديّة".

ومثله قول أبي الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسّان الأندلسّي الجِلياني

في تشبيه جنود السّلطان وأعماله بأعمال الخلفاء الرّاشدين والصّحابة الكرام:

أبا المظفّر أنت المجتبى لهدى ** أخرى الزّمان على خُبر بخبرتـــــه

فلو رآك وقد حزت العلا عمر ** في قُلّة التَّلّ قضّى كنه عِبرتـــــه

ولو رآك وأهل القدس في ولــه ** أبو عبيدة فدّى من مسرّتـــــه

دارت بك الملّة الحسنى فنحن على ** عهد الصّحابة في استمرار مِرّته

وأنت كاسمك صدّيق وصاحبه الـ ** ملْك المظفّر سام في مبرّتـــــه

وفي السّلالة عثمـــان يؤيّـــــده ** عُلا عليّ في إيثار نصـرتـــه [٢]

ومن هذا المعنى أيضًا قول فتيان الشّاغوري في تشبيه عمل السّلطان بعمل قائد جيش عمر في الفتح الأوّل وهو عمرو بن العاص؛ حيث جعلهما مشتركَيْنِ في متجر واحد، وذلك قوله:

وأعدت ما أبداه قبلك فاتحًا ** عمرو فأنت شريكه في المتجر[٣]

وفي تلك القصيدة ذكر فضل السّلطان على من سبقه من الملوك وذلك في قوله:

أهدى صلاح الدّين للإسلام إذْ ** أردى قبيل الكفر ما لم يُكفرِ

ربُّ الـــملاحم لم يؤرّخ مثلَهـا ** العـلماء في قديم الأعصـر

---

(1) المصدر السّابق، ص ٢٦٣

(2) أبوشامة، **الرّوضتين في أخبار الرّوضتين**، ص ٢٣٥

(3) فتيان الشّاغوري، **ديوان فتيان الشّاغوريّ**، ص ١٤٣

وفي تشبيه السّلطان وأعماله قول الجوّابي:

يا يوسف الصّدّيق أنت لفتحها ** فاروقها عمر الإمام الأطهر

ولأنت عثمان الشّريعة بعده ** ولأنت في نصر النّبوّة حيدر

ويقول أبو الحسين ابن جبير الأندلسّي في فضل السّلطان بهذا الفتح وفي تشبيهه بعمر بن الخطّاب:

لَكُم ذخر الله هذي الفتوح ** من الزّمن الأوّل الغابر

وخصّك من بعد فاروقه ** بها لاصطناعك في الآخر[١]

ويقول العماد في تفضيله صلاح الدّين على من سبقه من الملوك:

رأيت صلاح الدّين أشرف من غدا ** وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى

فلا يستحقّ القدس غيرك في الورى ** فأنت الّذي من دونهم فتح القدسا[٢]

ويقول في قصيدة أخرى:

أبشر بفتح أمير المؤمنين أتى ** وصيته في جميع الأرض جوّاب

ماكان يخطُر في بال تصوُّره ** واستصعب الفتح لِما أُغلق الباب

وخام عنه الملوك الأقدمون وقد ** مضت على النّاس من بلواه أحقاب[٣]

ويقول أيضًا في قصيدة مدح بها الملك الأفضل (أحد أبناء السّلطان):

والقدس أعضل داؤه من قبلكم ** فوفيتم بشفاء ذاك المعضل

درج الملوك على تمنّي فتحه ** زمنًا وغلّتهم بـه لم تُبْلـل

وأتى زمانكم فأمكن آخرًا ** ما قد تعذّر في الزّمان الأوّل

ما كان قطّ ولا يكون كفتحكم ** للقدس في الماضي ولا المستقبل

أوجدتمُ منه الّذي عدم الورى ** وفـعلتمُ في الفتـح مالم يُفعل

---

(1) أبوشامة ،**الرّوضتين في أخبار الرّوضتين** ، ص٢٤١

(2) المصدر السّابق، ص ٢٣٣

(3)المصدر السّابق، ص ٢٣٤

أيدي الملوك تقاصرت عن مفخر ** طُلتم به قُبُلوا بعضّ الأنمـل

أحيـيــتمُ شرع الكرام ولم يزل ** نصر المحقّ بكم وقهر المبطل[١]

ويقول في تأكيد انتصار الملائكة لجيش السّلطان:

جنودك أملاك السّماء وظنّهم ** عُداتك جنّ الأرض في الفتك لا الإنسا[٢]

فهو وإن كان مشبّهًا فلأنّه وجد صلة بين هذه الجنود وجند بدر الّذي نزل من السّماء، فألحقهم بهم.

ويقول الحسن الجويني في نزول جنود السّماء، وفضل السّلطان على من سبقه من الملوك، وإنقاذ الله به البيت من أيدي الصّليبيّن بعد وقوعه تحت نفوذهم تسعين عامًا:

جُندُ السَّمَاءِ لِهَذَاالْمَلْكِ أَعْوَان ** مَنْ شَكَّ فِيهِمْ فَهَذَا الْفَتْحُ بُرْهَانُ

مَتَى رَأَى النّاسُ مَانَحْكِيهِ فِي زمَنٍ ** وَقَدْ مَضَتْ قَبْلُ أَزْمَانٌ وَأَزْمَانُ

هَذِي الْفُتُوحُ فُتُوحُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا ** لَهَاسِوَى الشُّكْرِ بِالْأَفْعَالِ أَثْمَانُ

أَضْحَتْ مُلُوكُ الْفِرَنجِ الصِّيدُ فِي يَدِهِ ** صَيْدًا وَمَاضَعُفُوايَوْماًوَمَاهَانوُا

كَمْ مِنْ فُحُولِ مُلوكٍ غُودِرُوا وَهُمُ ** خَوْفُ الْفِرِنْجَةِ وِلْدَانٌ وَنِسْوَانُ

اِسْتَصْرَخَتْ بِمَلِكْشَاهِ طَرَابُلُسٌ ** فَخَامَ عَنْهَا وَصُمَّتْ مِنْهُ آذَانُ

هَذَاوَكَمْ مَلِكٍ مِنْ بَعْدِهِ نَظَرَ الْـ ** إِسْلَامَ يُطْوَى وَيُحْوَى وَهْوَ سَكْرَانُ

تِسْعُونَ عَامًا بِلَادُ اللهِ تَصْرُخُ وَالـْ ** إِسْلَامُ أَنْصَارُهُ صُمٌّ وَعُمْيَانُ

فَالْآنَ لَبَّى صَلاَحُ الدِّينِ دَعْوَتَهُمْ ** بِأَمْرِ مَنْ هُوَ لِلْمِعْوَانِ مِعْوَانُ

لِلنَّاصِرِ ادُّخِرَتْ هَذِي الْفُتُوحُ وَمَا ** سَمَتْ لَهَا هِمَمُ الْأَمْلَاكِ مُذْ كَانُوا [٣]

ويقول نجم الدّين يوسف بن الحسين بن المجاور الوزير العزيزي في هذا المعنى أيضًا:

---

[1] أبوشامة، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين** ، ص ٢٤٢

[2] المصدر السّابق، ص ٢٣٣

[3] أبوشامة، **الرّوضتين في أخبار الرّوضتين** ، ص ٢٣٨

جاءت جنود الله تطلب ثأرها ** وصدورها بك عن قليل تشتفي[١]

المحور الثّالث: دور الأنساق الأدبيّة حول فتح القدس في عهد صلاح الدّين في بعث روح الأمل وتعزيز مبدأ التّفاؤل للأمّة.

لا شكّ أنّ هذه النّصوص الّتي أوردناها سابقًا وأمثالها الكثير الّتي تناولت فتح القدس على عهد صلاح الدّين الأيّوبي، تبعث الآمال وتعيد لقارئها الثّقة بالله وبما يمكن أن يحدث في المستقبل بعد ما نعايشه من الآلام، فإذا لاحظنا النّصوص المذكورة سابقًا سنجد منها نصوصًا تنبّأت بفتح القدس قبل فتحه بأربع سنوات استنادًا إلى نصوص تفسيريّة أخرى أقدم منها بكثير، ثمّ كانت نتيجة هذا التنبّؤ واضحة وجليّة بسنتها وشهرها، وقد وجدنا في عصرنا هذا عددا من العلماء تنبّأوا لسقوط إسرائيل المحتّم بإذن الله تعالى سواء منهم من استند إلى استشفاف قرآني ومن استند إلى قراءة واقع اليهود وما أذيعت في صحفهم من قراءات مؤكّدة لذلك.

ففي عام ١٩٩٨م تنبّأ الشّيخ أحمد ياسين بسقوط إسرائيل وأكّد أنّه يستند في هذا التّنبّؤ إلى استشفاف قرآني مفاده، أنّ الأجيال تتغيّر كلّ أربعين سنة، فحين فرض الله التّيه على بني إسرائيل كانت الحكمة منه أن يغيّر الجيل المريض ويأتي بجيل مقاتل، وقد كانت الأربعون الأولى لفلسطين تمثّلها: النّكبة، والأربعون الثّانية: الانتفاضة والمواجهات والتّحدّي والقتال والقنابل، والأربعون الثّالثة بإذن الله تعالى تكون الانتصار، وقد حدّد الإطار العام لهذا السّقوط ثمّ حدّد التّاريخ بعينه وهو: الرّبع الأوّل من القرن الواحد والعشرين وبالتّحديد عام ٢٠٢٧م.[٢]

وهذا التّنبّؤ لسقوط إسرائيل لم ينفرد به الشّيخ أحمد ياسين فقط، بل بات قراءات منطقيّة تتداول في الصّحف الإسرائيليّة لخّصها العالم المصري عبد الوهّاب المسيري في عشر علامات وهي:

تآكل المنظومة المجتمعيّة للدّولة العبريّة، الفشل في تغيير السّياسات الحاكمة، وزيادة عدد النّازحين لخارج إسرائيل، وانهيار نظرية الإجماع الوطني، وفشل تحديد ماهي الدّولة اليهوديّة، عدم اليقين من المستقبل،

---

[1] المصدر السّابق، ص ٢٣٧

((1 انظر في برنامج **شاهد على العصر، قناة الجزيرة**، ١٩/١/ ٢٠٢٢م

العزوف عن الحياة العسكريّة، عدم القضاء على السّكّان الأصليّين، تحوّل إسرائيل إلى عبء على الاستراتيجيّة الأمريكيّة، استمرار المقاومة الفلسطينيّة [١].

الخاتمة والنّتائج:

نتوصّل من خلال ما سبق إلى عدد من النّتائج يمكن إجمالها في ما يلي:

١. تمّ فتح القدس على يد السّلطان صلاح الدّين الأيّوبي وجنوده، بتاريخ: سبعة وعشرين(٢٧) من رجب عام ٥٨٣هـ، وكان من أهمّ الظّروف الّتي مهّدت لهذا الفتح، قيام الدّولة الأيّوبيّة الّتي كانت ثمرة من ثمار الأتابكيّة الزّنكيّة والّتي كانت فصيلة واحدة من فصائل الأتابكيّات الّتي انحدرت كلّها من السّلاجقة التّركيّين الّذين لعبوا الدّور المهمّ في الحفاظ على بيضة الإسلام حين ضعفت الخلافة العبّاسيّة وتعرّضت لهجمات صليبيّة ومؤامرات شيعيّة.

٢. الأنساق الأدبيّة الّتي تناولت فتح القدس وما حوله أيّام السّلطان صلاح الدّين الأيّوبي كثيرة ومتنوّعة، فمنها النّثر من خطب ورسائل، ومنها الشّعر.

٣. لقد تشابهت هذه النّصوص والتقت بعضها ببعض في كثير من الألفاظ والمعاني تؤكّد أنّها كانت تناشد هدفًا واحدا هو تحرير القدس ومدح فاتحيها.

٤. هذه النّصوص بمعانيها المتقاطعة تلعب دورًا مهمًّا جدًّا في تشجيع الحكّام والمجاهدين للمضيّ حتّى يحقّقوا النّجاح، كما يؤكّد بعضها بلا ريب، إمكانية استعادة دولة فلسطين المغصوبة.

٥. تشابهت التّنبّؤات في الماضي والحاضر على مسرح القدس فتحقّق للسّابقين ما تُنُبِّئ لهم أيّام صلاح الدّين؛ وهي تنبّؤ ابن برّجان في تفسيره والقاضي ابن زكيّ في بيته الشّعري، فهل نكذّب الحاضرين في صدق تنبّئهم وننفي إمكانية تحقيق ما ذكروه في فلسطين؟

---

(2) انظر برنامج بلا حدود أحمد منصور، بتاريخ ٢٣ مايو ٢٠٢١/

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. ابن الأثير، **الكامل في التّاريخ**، ط١، (بيروت لبنان: دار الكتب العلميّة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٣. أحمد حسن الزّيّات **تاريخ الأدب العربي**، د.ط، (مصر: دار النّهضة العربيّة، د.ت).

٤. أريسطوطاليس، **الخِطابة**، التّرجمة العربيّة القديمة،(الكويت: وكالة المطبوعات، د.ط، ١٩٧٩م).

٥. الأندلسّي، أبو القاسم محمّد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسّي **أحكام صيغة الكلام**، ط١، (مصر: دارالثّقافة ، ١٩٦٦م).

٦. ابن برّجان اللّخمي، **تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم وتعرّف الآيات والنّبأ العظيم**، ط١،(بيروت: لبنان دار الكتب العلميّة، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م).

٧. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد الجرجانيّ، **دلائل الإعجاز**، (د.م :مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، د.ط، سنة ٢٠٠٨م).

٨. جمال الدّين محمّد بن سالم، **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، د.ط، (د.م: درا الكتب والوثائق القوميّة، المطبعة الأميريّة، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م).

٩. ابن خلقان، أبو العبّاس شمس الدّين ابن خلقان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**، د.ط، (بيروت : دارصادر ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م).

١٠. عامر فتحي، **فنّ الخطابة في العصرين الأيّوبي والمملوكي الأوّل**، د.ط(د.م:جامعة الشّرق الأوسط ٢٠٠٥م).

١١. العماد، عماد الدّين الكاتب الأصفهانيّ، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، د.ط، (د.م:دار المنار، ٢٠٠٤م).

١٢. السّبكيّ، **طبقات الشّافعيّة الكبرى**، د.ط،(القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة، د.ت).

١٣. أبو شامة، شهاب الدّين، عبد الرّحمن بن إسماعيل المقدسي الشّافعي، **الرّوضتين في أخبار الدّولتين النّوريّة والصّلاحيّة**، ط١، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلميّة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م).

١٤. ابن شدّاد، بهاء الدّين ابن شدّاد، **النّوادر السّلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة**، ط٢،(القاهرة :مكتبة الخانجي، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م).

١٥. شوقي ضيف، الدّكتور شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي** ط١،(بيروت:لبنان، دار الكتب العلميّة، ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

١٦. الصّفديّ، صلاح الدّين ابن أبيك الصّفدي، **الوافي في الوفيات**، ط١،(بيروت: لبنان، دار إحياء التّراث العربي، ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م).

١٧. الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ط١،(د.م: شركة القدس للنّشر والتّوزيع، ١٤٣٠هـ).

١٨. القلقشنديّ، أبو العبّاس أحمد القلقشنديّ، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، د. ط، (مصر: دار الكتب المصريّة، ١٣٤هـ /١٩٢٢م).

١٩. ابن كثير، الإمام الحافظ أبي الفداء ابن كثير، **البداية والنّهاية**،ط٢، (دمشق سوريا: دار بن كثير، المملكة العربيّة الأردنيّة الهاشميّة مكتبة دنديس، ١٤٣١هـ /٢٠١٠م.

٢٠. مجمع اللّغة العربيّة، **المعجم الوسيط**، ط٤،(مصر:مكتبة الشّروق اللّغويّة، ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م).

٢١. مجير الدّين، أبو اليمن القاضي مجير الدّين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ط١ ، (د.م: ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).

٢٢. مسلم بن حجّاج، **صحيح مسلم**، د.ط،(بيروت: دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، د. ت).

٢٣. ابن منظور،أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، ط٣، دار صادر بيروت، ١٤١٤هـ.

٢٤. ابن هشام، أبو محمّد عبد الملك ابن هشام ابن أيّوب الحميريّ، **مغني اللّبيب**، د.ط،(الكويت: التّراث اللّغوي ١٣٢١هـ / ٢٠٠٠م).